أميرة علامة

نعم سأنتظرك

١

بيت هادئ يملؤه الملل والبرود تشعر أن قطع الأثاث بالرغم من ثمنها الباهظ إلا أنها تكاد تبكي أو ربما تكون ميتة، الرياح بالخارج تكاد تستشيط غضبا والسماء تمطر بلا توقف، ويجلس عبد الرحمن على مكتبه شارد الذهن يرتدي روبًا من الصوف ويمسك قلمًا أحمر، وكل ما يملأ ورقته هي دوائر حمراء يرسمها بلا معنى لا تعرف لها أولا من آخر، ويستمع إلى أغانى أم كلثوم التي يعشقها قلبه كما تعود منذ سنوات، فهي حقا تلمس روحه بصوتها الذهبي. تدخل عليه زوجته ريهام فينقبض قلبها دون أن تدرى سببًا لهذا الانقباض، وذلك حين تستمع لكلمات الأغنية التي كانت كوكب الشرق تغرد بها قائلة:

أَكَادُ أَشُكُّ فِي نَفْسِي لأَنِّي * أَكَادُ أَشُكُّ فيكَ وأَنْتَ مِنِّي

يَقُولُ النَّاسُ إنَّكَ خُنْتَ عَهْدِي * وَلَمْ تَحْفَظْ هَوَايَ وَلَمْ تَصُنِّي

تحاول ريهام التحكم في تفكيرها وإبعاد أى أفكار غريبة تطاردها وتستكمل طريقها إلى عبد الرحمن قائلة له:

- إيه يا حبيبي حتى ف يوم ميلادى هتسيبنى وتقعد تسرح مع أم كلثوم برضو؟

ليرد عليها عبد الرحمن مشاكسًا:

- أول مرة أشوف ست بتغير من وحدة ميتة.

- ماهى الميتة دى لها نصيب فيك أكتر مني، أنت مش واخد بالك إنك طول ما أنت ف البيت قاعد في المكتب وبتسمع الست.
- ههههههه مالك بتقولي الست من تحت ضرسك ليه كدة؟ عامة حاضر ياروحى اطلعي أنت وأنا خمس دقايق وهجيلك.
- ماشي ياحبيبي.

تستدير ريهام وتتجه للباب ليوقفها صوته وقد تغيرت نبرته لتصبح أكثر قوة وصرامة:

- ريهاااام هو علاء رجع من برة؟

ترد ريهام وقد غمرت ملامح الضيق ملامحها بسبب تغير صوت زوجها ونبرته قائلة:

- لا يا حبيبى لسه مارجعش أنت عارف النهاردة الخميس وهو بيحب يسهر مع أصحابه.
- امممم هو أصلا كل أيامه خميس، حسابه معايا تقل أوي ماشي يا حبيبتى اتفضلى انتى وأنا جاي وراكي.

تتركه ريهام وقد تبدلت ابتسامتها العشرينية حزنا ونكدًا فهي تعرف جيدًا مايدور بداخل عقل زوجها.

يمسك عبد الرحمن هاتفه ويتصل بابنه علاء عدة مرات ولا يتلقى أي إجابة فيزداد غضبه ويضع الهاتف في جيبه ويصعد لزوجته ريهام كما وعدها...

٢

يجلس علاء مع صديقه المقرب فريد على شاطئ الأنفوشي بالإسكندرية بداخل مركب صغير أهلكه الزمان حتى أصبح مجرد خردة يلعب فيها الأطفال نهارًا وتكون مأوى لذوي القلوب المنهارة ليلا، مازالت الأمطار تتساقط بشدة وتكاد الرياح أن تطيح بالمركب القديم وبمن داخلها لولا أن جزءًا منها قد غرس في الرمال منذ زمن بعيد مما زاد ثبوتها ضد الرياح الهوجاء....

يندمج المطر مع دموع علاء التي تكاد تخرج حمراء اللون كلون عينه الذي تحول من كثرة الحزن والدموع من اللون الأخضر المميز للأحمر الدموي، فقط يجلس صامتا لا حول له ولا قوة ولا يملك شيئا سوى البكاء ليقول له صديقه فريد للمرة المائة:

- يا حبيبى اهدا بقا خلاص يابنى عينك باظت وصحتك تقريبا انعدمت من كتر العياط تقدر تقولى أخرة ده كله إيه؟
- يا فريد إنت مش فاهم حاجة إنت مش عارف هى كانت إيه بالنسبالى..... وينفجر باكيا بحرقة قلب لا يعرفها سوى المحب الذي فقد حبيبه.
- طاب يا علاء إنت قلت بنفسك كانت.. كانت.. عارف يعنى إيه كانت؟ يعنى خلاااااص مش موجودة في الحاضر ولا في المستقبل، يبقى لزمته إيه بقا كل العياط ده؟

- يا فريد عارف يعنى إيه يكون عيد ميلادها النهاردة ومش من حقي حتى أقولها كل سنة وهي طيبة، ومش من حقى أجيبلها هديتها اللي فضلت سنين بجيبهالها..

ويعلو صوت الرعد مشاركًا إياه حزنه ولوعته ويستكمل كلامه باكيا:

- عارف يعنى إيه إن حبيبتى اللى عشت طول عمرى أتمناها تكون في حضن واحد تاني غيرى وحظي الأسود إن الواحد ده يكون أبويا...
- يا علاء الوضع ده بقاله ٥ سنين، ارحم نفسك بقا يا أخي.
- أيوه بقالهم ٥ سنين متجوزين لكن أنا ماعرفتش غير من سنة واحدة لما رجعت من السفر عشان أتقدم لحبيبتي اللي خفت أكلمها واتقيت ربنا فيها عشان تكون من نصيبي في الحلال، لكن يا خسارة الحلال رحلها أسرع مني مع أبويا. وصرخ بأعلى صوته ليختلط صراخه بصوت الرعد والرياح ويسقط مغشيا عليه........

لا يجد فريد من يستغيث به سوى عم رأفت صاحب كشك الشاي الصغير الذي يقضي نهاره في عمل الشاي لرواد الشاطئ والصيادين، بينما يقضى ليله سارحًا في البحر والسماء مستأنسًا بالراديو وأغاني عبد الحليم ورواد الشاطئ ممن لم يجدوا ونيسًا لوحدتهم الليلية سوى البحر ورائحة المراكب القديمة أمثال علاء وفريد، قام عم رأفت متجها ناحية صوت فريد وهو ينادى عليه مستنجدا به ليقوما بحمل علاء ووضعه في سيارة فريد وهما لا

يعرفان ما إن كان مازال على قيد الحياة أم فارقها، كما يكاد ظلام الليل أن يفارق هذه الليلة، فقد كان الفجر على وشك الأذان ليعلن عن بداية يوم جديد.....

وقف فريد أمام أقرب مستشفى بالمنطقة وهي مستشفى الملكة نازلي وبرغم علمه أنها متخصصة في مجال الأطفال إلا أنه لم يكن بيده حل آخر لإنقاذ زميله، فعلى الأقل سوف يقومون بعمل الإسعافات الأولية له، هذا وإن كان مازالت به الروح !!

وبالفعل قام أحد الأطباء الموجودين بإسعاف علاء وتعليق بعض أنابيب المحاليل له وطلب من سيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى سرعة نقله لمستشفى أكبر بإمكانيات أفضل حيث يحصل على العناية المناسبة هناك وتحت إشراف طبي جيد، وذهب وراءه فريد في سيارته وهو منقبض القلب فلا يعلم ماحالة صديقه وهل سينجو أم لا. ففريد يتيم الأب والأم وليس له أخوات وترك له والداه إرثا ضخمًا، ومنذ الصغر يعتبر علاء صديقه الوحيد ولم ينفصلا سوى منذ ٦ سنوات عندما قرر علاء السفر للخارج ليكمل تعليمه كما أجبره والده وقتها، وكان عليه فراق ريهام التي لم يعرف قلبه الحب إلا عندما رآها وهي في عامها الأول من الكلية بينما كان هو في العام الثالث واكتفى بإرسال جواب لها قائلا:

- لا أريد منك سوى أن تنتظريني حتى أكمل تعليمي وأحقق رغبة والدي في الحصول على شهادة الدراسات العليا، وسأبذل قصارى جهدي حتى يكون هذا الوقت قصيرًا، ولكن لن أتحدث معك فأنا لا أعتبرك مجرد زميلة ولكن

أنتِ من يدق قلبي كلما سمع اسمها أو رأى طيفها، انتظريني وأعدك في المقابل ستحصلين على قلب لم ولن يحب أحدًا سواك، وسأعيش فقط لكي تكوني سعيدة وملكة لهذا القلب المشتاق..... علاء

لم يحدثها علاء واكتفى بردها الذي كتبته على أحد أوراق المحاضرات (نعم سأنتظرك) وكان في كل مناسبة عيد أو يوم ميلاد أو يوم الحب يرسل لها أروع الهدايا مع كارت يحتوي كلمة واحدة (انتظرينى ولن أرضى بغيرك بديلا يا.....) وكان يترك النقط فارغة في كل كارت ويترك خيالها يضع فيه اللقب الذي تحب..... انتبه فريد من ذكرياته عندما وصلت سيارة الإسعاف للمستشفى وقام بتسجيل البيانات ودفع المصروفات بينما أخذ الأطباء علاء إلى غرفة العناية المركزة كما أوصى طبيب مستشفى الملكة نازلي في تقريره.

انتظر فريد أمام غرفة العناية حتى خرج الدكتور الذي أخبره أن يدعو لصديقه فحالته خطيرة، حيث أصيب بانفجار في الأوعية الدموية بالرأس مما سبب له نزيفا كاد يقضي عليه لولا المحاليل التي علقها له الطبيب بالمشفى الأول.

لم يجد فريد مفرًا من إخبار والد علاء فهو لن يسلم من العتاب لو حدث لعلاء مكروه دون علم والده، وبالفعل قام بتشغيل هاتف علاء وبحث عن اسم والده واتصل به، وكانت الساعة الثامنة صباحًا، رد عليه عبد الرحمن بصوت غاضب:

- مالسة بدري يابيه وجاي على نفسك وبتتصل بيا ليه ماكنت تكمل بيات برة من غير ماتتصل و...

قاطعه صوت فريد الباكي قائلا:

- أنا مش علاء يا عمو أنا فريد صاحبه، علاء تعب شوية إمبارح ونقلته على المستشفى.

صدم عبد الرحمن مما سمعه وتمنى لو كان ماسمع لم يكن حقيقيًا، فهو يحب ابنه جدًا، ولكن منذ رجوع علاء من السفر وهو يشعر بحالة من التوتر لا يعرف وضع نهاية لها وخاصة مع تطور الأحداث بينهما وصدمة علاء عندما علم بزواج والده الذي عاش محبا لزوجته في حياتها مخلصًا لها بعد وفاتها، وتصميم عبد الرحمن على سفر ابنه ليكمل تعليمه محققا رغبة والدته قبل وفاتها، ولكنه وجد نفسه وحيدًا بين أثاث فيلته الضخمة لا ونيس له، فقرر أن يتزوج، وقد رشح له أحدهم ريهام الفتاة الفقيرة والتي كانت أختًا لخمس فتيات غيرها ولا يستطيع والدها تحمل نفقاتهم وسيوافق على أول عريس مقتدر يدق بابه، وبالفعل تزوج من ريهام ولكنه لم يخبر علاء في غربته خوفا عليه من الحزن في الغربة وحيدا.........

وصل عبد الرحمن إلى المستشفى التي يرقد بها علاء بين الحياة والموت، فها هو على سرير العناية لا يشعر بما حوله يزداد لونه اصفرارًا يتعرض لحالات نزيف مستمرة لا يستطيع الأطباء السيطرة عليها، حيث يزداد سوء حالته بسبب انهيار أعصابه وماتعرض له من ضغط نفسي شديد الفترة السابقة، لم يستطع

عبد الرحمن رؤية ابنه في هذه الحالة وجلس على الأرض أمام غرفة العناية يبكي ابنه الذي لم يكمل عامه الثامن والعشرين وقد أنهكه المرض وسرق منه نضارة شبابه والله وحده يعلم هل سيعيش أم ستكون آخر أنفاسه بهذه الغرفة.

حاولت ريهام إقناع زوجها بالذهاب معه ولكنه لم يوافق، فهو منذ زواجها به منذ خمسة أعوام لم يجعلها ترى الشارع أو ترى أهلها إلا إن أتت والدتها إليها، وهذا لم يحدث سوى أربع مرات على أقصى تقدير، فعبد الرحمن في الخمسينات من عمره وريهام مازالت في عقدها الثاني وتتمتع بجمال يلفت الانتباه، فهي متوسطة الطول شديدة البياض عينها العسلية لامعة لا تعرف هل لمعتها فرحة أم دموعًا أخفاها الزمان، تتميز بشعر أسود ناعم طويل يكاد يصل لأسفل ظهرها، من يراها لا يستطيع أن يبعد نظره عنها وعن هدوئها ونظراتها البريئة، ولذلك كان عبد الرحمن يغار عليها بشدة ويحبسها في منزله وكأنها إحدى مقتنياته الثمينة، لم يفكر فيما تحتاج وهل هي سعيدة أم لا، فكيف لا وهو من وجهة نظره يوفر لها المأكل والمشرب والملابس ويأويها في فيلته الصغيرة التي لم تكن تحلم يوما بدخولها، ظلت ريهام شاردة الذهن تتذكر علاء وأول لقاء لها معه في الكلية، حيث أتى إليها وهي تقف مع إحدى زميلاتها وألقى السلام وأعطاها ورقة واختفى وكأنه لم يكن موجودا، قرأتها مئات بل آلاف المرات وهي تطير من فرحتها، فها هي المرة الأولى التي تقابل فيها إنسانا يريدها في الحلال دون أن يحاول استغلال فقرها ومحاولة الإيقاع بها أو يعرض عليها أن يصبحا أصدقاء إلى أن يشاء

الله، بل إنه هو علاء الذي يريدها حلالا له ويخاف الله فيها، كتبت له الرد بدون عمل حساب لأفاعيل القدر (نعم سأنتظرك) لم تكن تعرف أن والدها سيبيعها لأول من يدق بابه وأنها ستعيش بين هذه الجدران الميتة وستدفن شبابها مع هذا العجوز، ولم تكن تعرف عن علاء أي شيء غير أنه سافر لإحدى الدول الأوروبية ولا تعلم متى سيعود أو هل مازال على وعده معها؟ لم يكن بيدها قرار الرفض فها هي ترتدي جاكيت أبيض وتنورة بيضاء وتزف إلى رجل في عمر أبيها، حتى أن حلمها بالفستان الأبيض قد مات ولم يعد له وجود مثله مثل باقي أحلامها......

كانت الصدمة الكبرى يوم رجوع ابن زوجها من السفر، لم تكن تعلم عنه شيئا، فحتى غرفته من المحرمات عليها داخل الفيلا، ولم يذكر زوجها أي شيء عنه حتى ولو مجرد اسمه، ليظهر أمامها فجأة علاء وقد خسر جزءًا كبيرًا من وزنه وبرزت عضلاته بشكل أكثر جاذبية لتعطيه إطلالة مميزة ارتعد لها قلبها ولم تشعر سوى بعبد الرحمن يرش الماء على وجهها ويجعلها تستنشق أحد العطور لتفيق متمنية أن يكون ما رأته مجرد حلم أو بالأصح كابوسًا، وأخبرته أنها بخير وأن هذا مجرد إرهاق من أثر الترتيب والتجهيز على شرف حضور ابنه من السفر، طيلة عام كامل تظل حبيسة غرفتها طالما كان علاء موجودًا بالفيلا، وتظل حبيسة رغباتها وقلبها طالما عبد الرحمن مازال يتنفس بجوارها، إنه العذاب، عذاب الروح الذي لا نعرف له علاجًا ولا طريقا للهروب منه، ظلت هكذا عامًا كاملا تهرب من نظراته الحارقة، تراه يتدمر يوما بعد يوم لا تستطيع مواجهته

وتعلم جيدًا أنها بلا فائدة، فهى زوجة أبيه ومحرمة عليه، ولكن هو لم يكن يراها سوى الفتاة الخائنة للعهد والقاتلة للقلب، ظلت تصلي وتدعو كثيرا أن يشفي الله علاء وأن يسامحها ويعرف أن لم يكن بيدها حيلة وقت زواجها من أبيه، وأنها لم تكن لترضى أن تكون الزوجة الخائنة لأبيه حتى ولو كان هو أول وآخر من دق قلبها له.

سمح الدكتور لعبد الرحمن بالدخول لابنه علاء الغائب عن زمننا في عالم آخر يعلمه الله وحده، وذلك بعد ارتداء غطاء بلاستيكي للرأس والقدم، دخل وجلس على كرسي بجانب سريره وأمسك يده وظل يبكي فترة ثم قال له:

- سامحنى يابني لو كنت زعلتك في يوم من الأيام، أنا خبيت عليك موضوع جوازي عشان ماهزش صورتي قدامك وتفضل شايفني الأب والزوج المخلص، ربهام بالنسبالي.........

لم يكمل عبد الرحمن جملته حتى علت أصوات إنذار الأجهزة الطبية ووجد الغرفة امتلأت بالأطباء والممرضات، وبعد عدة محاولات لإنعاش ذلك القلب الحزين لم يكن بوسع الأطباء سوى الإعلان عن ساعة الوفاة وانتقال روح علاء حاملة أسرارها معها إلى رب العرش الكريم، بينما ظل عبد الرحمن واقفا غير مستوعب لوفاة ابنه وكيف أنه مات دون أن يسامحه.